

دور الزوايا الصوفية في إذكاء الحس الوطني ومقاومة الاستعمار (نماذج وأعلام)

The role of Sufi zawiyas in raising national sentiment and resisting colonialism (models and flags)

إعداد: حسن ابن العريز.

طالب باحث بسلك الدكتوراه بالكلية المتعددة التخصصات بالرشيدية

-المملكة المغربية-

تاريخ النشر: 2024/5/15

تاريخ القبول: 2024 /5/1

تاريخ الاستلام: 2024/4/25

الملخص:

هدف هذا البحث إلى التعرف على دور الزوايا الصوفية في إذكاء الحس الوطني ومقاومة الاستعمار (نماذج وأعلام)، كما واتسم التصوّف المغربي بقيم عصرية مميزة، ولعبت الزوايا الصوفية دورا مهما في بناء الدولة، وأضحت ساحة للتوعية والتربية الدينية؛ إذ تميز مريدو الزوايا المغاربة بطريقة خاصة في التربية والسلوك، ما جعل صيتهم يتجاوز حدود المملكة، ويمتد لبلدان جنوب الصحراء الأفريقية.

الكلمات المفتاحية: الزاوية الصوفية، إذكاء الحس الوطني، مقاومة الإستعمار.

Abstract

The aim of this research is to identify the role of Sufi zawiyas in stoking national sentiment and resisting colonialism (models and flags). Moroccan Sufism was also characterized by distinctive modern values, and Sufi zawiyas played an important role in building the state and became an arena for awareness and religious education. The Moroccan disciples of the Zawiyas were distinguished by a special way of education and behavior, which made their fame go beyond the borders of the Kingdom and extend to the countries of sub-Saharan Africa.

Keywords: Sufi corner, raising national sentiment, resisting colonialism.

المقدمة:

إن للزوايا الصوفية في المغرب دورا رياديا في خدمة المجتمع الذي توجد فيه وغيره من الهوامش المرتبطة بها روحيا وولاء، نظرا لما توفره وتقدمه من خدمات تعليمية واجتماعية، فهي منهل العلوم والسلوك الحسن والاقبال على النفع العام والعمل الصالح وتوفير الحماية للخائفين وإطعام الجائع، وهو أمر لا يخفى قديما وحديثا خاصة في بعض المناطق حاليا- حتى سار يلاحظ على أفراد القبائل التي تتواجد فيها هذه الزوايا بأنهم يتميزون بصفات الحلم والكرم والأمان ونبد الحفاء وبغضه بخلاف التي لا ترتبط بها.

وهذه الأدوار غالبا هي التي تتبادر إلى أذهان كل من يسمع إسم الزاوية أو التصوف، غير أن الأمر الذي لم يسلط عليه الضوء كثيرا أو أنه على الأقل ليس شائعا بين الأنام بما يستحقه لجلال منزلته هو مساهمة الزاوية الصوفية في تحريض المومنين على قتال المستعمر وجهاده ومقاومته.

وهو الأمر الذي سأحاول أن أبرز بعض معالمه في هذه الأقطار المجاهدة من المغرب الحبيب من خلال نماذج منها (معركة بوكافر) (أولا) ، والأعلام الذين كان لهم الحضور الفعال في مقاومة الاستعمار المرتبطين بالزوايا الصوفية (ثانيا) .

أولا: الزوايا الصوفية وإذكاء الحس الوطني في مقاومة الاستعمار (معركة بوكافر أمودجا)

لقد ساهمت الزوايا الصوفية في إذكاء الجانب الروحي للعديد من المقاومين إبان فترة الاستعمار الفرنسي للمغرب، وقد تجلّى ذلك من خلال معركة بوكافر الخالدة ، فهي الملحمة العطاوية التي استنزفت المستعمر الفرنسي، رغم عتاده وعدته في مشهد بطولي أسطوري لا يمكن أن نتحدث عنه بعيدا عن المعتقد الديني الذي يسكن وجدان وكيان المقاومين وهم يواجمون أسلحة ثقيلة وطائرات حربية هجومية بصدور عارية وأرجل حافية ورؤوس حاسرة وبنديقيات تقليدية من نوع " بوشْفَر " رجالا ونساء على حد سواء وتضحيتهم بالألاف من رؤوس المشاة التي هي قوام ما لهم * ويتجلى هذا المعتقد في طبيعة التكوين الفكري والعقدي لهؤلاء الذين يظهر عليهم الحفاء، ولكن التدين استحكّم في سويداء قلوبهم ،

وذلك لارتباطهم بمجموعة من الزوايا الصوفية¹ يعظمونها ويوقرونها ويستوثقون للعهود عندها، بل إن زعيم ملحمة بوكافر عسو أو بسلام نفسه رجل ذو تربية صوفية².

* ولا أظنهم يضحون بذلك كله من غير دافع عقدي قوي وقد عرف عنهم أنهم لا يعطون أية اعطية أو اتاوة الا للزوايا خاصة زاوية متصلوحت وأيت مولاي عبد الله بن احسايين. قال سبيلمان نقلا عنهم "وحق دادا عطا المعطي ما نعطي" ص 56.
¹ - أورد القبطان جورج سبيلمان في كتابه آيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا ، ترجمة وتقديم محمد احدي طبع (BJ PRINT) بدعم من جامعة ابن زهر أكادير ، الطبعة الثانية 2011 ص: 91 أهم هذه الزوايا بقوله " وفيما يلي لأتحة موجزة لأهم الزوايا والأضرحة التي يزورها آيت عطا بانتظام :

- زاوية أحنصال على السفح الشمالي .
- زاوية سيدي الغازي بيومالن زاوية مولاي عبد القادر بيومالن
- موسم سيدي الحاج عمر أو عمر بالحارت نكرامن .
- موسم سيدي بوعدين بتاوريرت نايت باعة
- الزاوية الدرقاوية لسيدي الهواري بفركلة
- الزاوية الدرقاوية لرحمة الله بمدغرة
- الزاوية لسيدي محمد بن العربي بمدغرة
- الزاوية العلوية بالمولاي مصطفى بن الحنفي بالغرامنة بالركب
- الزاوية العلوية بللا حلجة بالركب .
- الصدوقيون بالزاوية الحمراء والجديدة بالركب
- ضريح مولاي الشريف قرب تغمرت بوادي اقلي
- زاوية سيدي الغازي ما تمولت .
- قبة سيدي امحمد ن فروتن ونيس ايت اعزي قرب امي ن توغزة في الرك .
- موسم امليل بتوغزة (الرك).
- موسم سيدي يوسف سليل مولاي عبد الله بن حسلين بأرفود (الرك)
- أولاد موي عبد الله بن حسلين بتازارين
- قبة سيدي عمر ياغف تغزي بتازارين
- قبة سيدي ويسعدن بأيت باحموا تازارين .
- الزاوية القادرية بتامسلا المساة زاوية مولاي بلقاسم عند آيت زيري درعة .
- زاوية سيدي محمد اوبراهيم بأغلان في ترنانة .
- الزاوية الناصرية بتامكروت في فزواطة .
- آيت سيدي عبد العالي بفزواطة .
- ضريح دادا عطا بقم ثقَّاتْ بُلْكَاوُنْ على الضفة اليسرى لوادي درعة بين فزواطة وكنانة .
- الصدوقيون بزواية سيدي صالح بلكنانة درعة .

ولعل هذا البعد الديني والعامل الروحي الصوفي هو ما جعل مجاهدي بُوْكَافِرٍ قبل أن يطلقوا أول رصاصة ينطقون بشكل جماعي بشهادة التوحيد، إعلاناً منهم ببيع أنفسهم وأمواهم لله تعالى³.

وفي ذلك يقول القبطان الفرنسي- جورج سبيلان: " ولم يطلقوا النار في معركة بُوْكَافِرٍ يوم 14 فبراير 1933 إلا بعد ترديد شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله جاعياً⁴.

وهذا الحس والداغ الديني خاصة المستقى من الزاوية الصوفية هو محرك بوصلة مجاهدي هذه الملحمة الخالدة، وقد تناقلت النسوة كذلك هذه الروح الحماسية الدينية ومنها أقوالهن في أشعارهن (إزلان):

وفي هذا الصدد أشد بعضهن منتقداً تفاوض عسو أو سلام مع المستعمر ومصافحته واعتبرته كفراً⁵:

لَيْعُ كُنُونِي بُوْكَافِرٍ مَهَا نَبِي يَزُوَارُغُ

لَيْكُذْ نَكُزْ بُوْكَافِرٍ مَهَا نَبِي نُرِيَتِي

وَاللَّهِ أَرْ حَسْمَعُ لَيْعُ كَيْعَزْدُ أُنُوسُ

أَهَا النَّبِيِّ عَاوَاتُكْ أَدَالِينْ

أَصَالِحِينْ شُدَاوْتُ نَصَاعَزُو نُدُعُوَاتُغُ

وأضافت المقاومة بزة عدي⁶:

أَبَا خُبُوشُ بُوْكَافِرٍ أَبُو الْمَجَاهِدِينَ؛ بِمَعْنَى يَا سَفْحَ الْجَبَلِ يَا صَاحِبَ الْمَجَاهِدِينَ.

وقال نسوة من بُوْكَافِرٍ

أَبْرِيغُ بُوْكَافِرٍ مَهَا نَبِي لَزُوَارُكْ؛ يَا جَمَاعَةَ الْمُتَحَصِّنِينَ بِجَبَلِ بُوْكَافِرٍ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَامَكُم.

1- وعلى العموم، لا يتبع العطاوي أي طريقة دينية أو صوفية، والصوفية لا تمثل بالنسبة إليه أي سحر أو اجتذاب، ومع ذلك نجد بعضاً منهم تابعين للدرقاوية

والقادريّة والصدوقية ونادراً ما يتبع بعضهم الناصرية. جورج سبيلان، م س، ص: 92 و93.

2- كان من مرئدي الزاوية الدرقاوي بتاغيا لشمشان جماعة تغزوت نيت عطا والتي ما زالت قائمة إلى اليوم.

3- ولعل هذا ما يفهم من قول جورج سبيلان في كتابة: " أيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا"، م س، ص: 49: لا يستطيعون اقتحام المعارك المنظمة وتحمل الحسائر، ولكنهم واجهوا فرنسا الكثيرة المتفوقة عددا وتنظييا بمقاومة يائسة لكنها عظيمة انتزعت إعجابنا.

4- جورج سبيلان أيت عطا، م س، ص: 49.

قلت: وكنت ازور خالة ابي بقصر- ايت بن سعيد جماعة ألنيف واسمها لهُو مُحمد من شهادات بوكافر استشهد أبوها أمامها وأصيبت بشظايا قبيلة متفجرة، وأجد حديثها كله عند حديثها عن معاناتها إبان معركة بوكافر كله عن الجهاد ضد الرومي وفي سبيل الله، فلم أشأ أن أحيلها على قضاء تسجيل المقاومين حتى لا أدخل في نيتها شيئاً من متاع الدنيا غير ما كانت تقصده وتؤمن به.

5 قصيدة أوردها محمد كمال مقاومة قبائل أيت عطا وأيت يافلان للاحتلال الفرنسي (1889-1936) أطروحة لنيل الدكتوراه كلية الآداب جامعة ابن زهر 2019.2020 ص: 403.

6 قصيدة أوردها محمد كمال مقاومة قبائل أيت عطا وأيت يافلان للاحتلال الفرنسي (1889-1936) م س، ص: 412.

الزاوية الدرقاوية بتغزوت نبت يعزى

لقد زرعت الزاوية الدرقاوية الصوفية في كيان أهلها ومريديها بالخصوص، حب الوطن ووجوب الدفاع عنه رافعة شعار: "جاهدو ولي هاجرو"⁷ (هكذا باللسان البارج) ويقصدون به عدم موالاتة المستعمر والخضوع له، فمن لا يستطيع أن يجاهد فعلى الأقل أن يهاجر مكان نفوذ المستعمر وعدم الرضوخ له، وهو شعار استجاب له، مريدو الزاوية واعتزوا سبيل المستعمر الفرنسي. عند تخوم تافيلالت، ومنهم حدش بن حدو⁸ وزوحا⁹ نابت لحو الذي فقت عينه ورجع حاملا سلاحه واضعا قماشاً على عينه، فلما أقبل ورأته النسوان كذلك، أنشدن في حقه:

هَانَ مَا يَنْدَاكَ لِإِكَانِ أَنْ يَأْتِي زُورَاتِنِ زُوحَا "يُوسَاكُنْتُ أَتَيْطُ لِأَيْدِ لَمْدَا فَعِ"¹⁰. ومعناه كل الرجال البواسل أشجعهم زوحا فرغم إصابة عينه ضدها وحمل سلاح زملائه الذين خرجوا معه استشهدوا.

وعظم أيت يعزى من قبيلة أيت عطا وحاملو لوائهم كانوا سريعين في الاستجابة لنصرة كل من ادعى أو دعا إلى مناهضة المستعمر تبعاً لروح الزاوية وشعارها في ذلك إلى درجة أن محمد بن المهدي الناصري تحمل عليهم¹¹.

وأكرر عليهم اتباعهم لمن ادعى الصلاح ودعا إلى الجهاد حين قال في حق "مبارك التورنوني" وكان وروده تودعة سنة ثلاثاً وثلاثين، وجهه الشريف الصالح العابد السالك المولى عبد المالك بن أحمد البومسهولي العمراني مع بعض المحبين واستوصى به خيراً... وعلق في عنقه نوعين من التسبيح... فلما لم يجد مقصده في تودعة رحل منها إلى بلدة أيت يعزى بفرقة من بني عطاء مأوى الاشرار الفجار، ومدرج الجهالة وعش الأغار، فهناك طاب له النزول والقرار¹².

⁷ رواية شفهية تلقيتها من رجل معمر بتاغزوت اسمه الحاج محمد اموجان بتاريخ 6 شتنبر 2022، وهو من مريدي الزاوية الدرقاوية بتغزوت وعاصر فترتي الاستعمار والاستقلال.

⁸ احمد بن حدو نابت لحو العزاوي المعروف ب، خدش نابت لحو من مريدي الزاوية وتبرع ببعض أراضيه الفلاحية بتغزوت عليها، ونقل عنه قوله سأهاجر ولو صرت كزانا بتافيلالت "وهو جدي من جهة الأب، ومن هذا الشعور أنه لما جاء با على داعيا إلى الجهاد تبعه في دعواه. وكان متقلدا منصب "أمغار نالوض" الشيخ العري، فأكرمه با على بتزويده بالشعير ولكن حسب والدي فقد ندم على موالاته، ولما مرض الموت قال ما أمرضني إلا طعامه. رحمه الله تعالى.

⁹ واسمه الحقيقي سعيد موحى بن سعيد نبت لحو، من مريدي زاوية تغزوت نبت اعزى لم يعقب وباع كل أملاكه وأقرض ثمنها لفقراء الزاوية ثم هاجر الى الجزائر ولم يرجع وانقطعت أخباره. وتوفر على نسخة من هذا العقد مؤرخ سنة 1950 باللغة الفرنسية.

¹⁰ ونقل عنه هذا البيت الشعري في رواية شفهوية ل محمد بنهيش الملقب بلقائيد بدوار أكديم تغزوت نبت عطا، ولم أقف على إسم المرأة التي أشعرت في حقه، وقد أشرت الى هاذين الرجلين لشيوخ قصتها وكنها من مريدي الزاوية والا فغيرها كثير.

¹¹ قلت ربما تحمل عليهم لكونه مواليا لقائد المستعمر على تودعا القائد الكلاوي؛ والا فما معنى ان يقول: "الفتان" أرسله الشريف البومسهولي.. واستوصى به خيراً..!!

¹² محمد المهدي بن العباس الناصري، نعت الغطريس، الفسيس هيان بن بيان المنثي الى السوس، "تحقيق وتقديم خالد نصر-الدين مطبعة الأمنية الرباط ط 1 ص: 33.

وهذا التحامل وصل حتى إلى ضريح سيدي امحمد إفروتنت الذي يعتبر منطلقاً للجهاد ضد فرنسا الاستعمارية تحت لواء التوزونوني، يقول المهدي الناصري، وهي حذاء روضة هناك تسمى بروضة سيدي أحمد إفروتنت ومعناه سيدي أحمد يخلص وينقذ ويفك من الشدائد، وهو بجبال صاغرو- لا أئيس بها ولا خسيس، وإنما هي مسكن كل لص خسيس¹³.

ثانياً: أعلام الزوايا الصوفية ومقاومة الاستعمار.

لقد سبقت الإشارة أعلاه إلى أن الزوايا الصوفية لعبت إبان فترة الاستعمار دوراً مهماً في تأطير العديد من المقاومين في مختلف أقطار المملكة الشريفة، إذ كان منطلقهم هو الجهاد، ولهذا دائماً ما يوظفون المعجم الشرعي في إيراد أحداث معاركهم، ونجد من ذلك:

(1) الطالب لحسن¹⁴:

لقد عبر " الطالب لحسن" عن ضمير وواقع وحال المقاومين لما قصدوا بؤكافر للتحصن فيه، فهو حشر- للجهاد ضد " الكافرين" الغزاة ويستشف ويفهم هذا من عدة عبارات في مخطوط¹⁵ بخط يد الطالب لحسن، وهو يحكي بعض وقائع المقاومة بالنيف وواد الرك ومن هذه العبارات ما يلي:

" هذه غزوة ساغرو رضي الله على المسلمين" ¹⁶

" وطلعوا الفرنسيون إلى الجبل ساغروا في كل جبهة وأداروا عليه حتى لم يجدوا المسلمون أين ما يخرجون ولا يلتفتون" ¹⁷.

" وغنموا فيه المسلمون في يوم واحد جهداً من بغال وقش وزرع"

" التي دمرت ملجأ للمجاهدين العطاويين" ¹⁸.

" لم يقدرنا أن يزعموا إلى المسلمين رضي الله عنهم والناصرى متصلة المؤونة" ¹⁹.

" وكذلك النساء التي حضرن تلك الغزوة وأهن فعلمن، كما أفعال الرجال في يوم القتال رضي الله عنهن" ²⁰.

ويتضح من خلال إفادة الطالب لحسن في هذا المخطوط أن الجانب الديني العقدي حاضر في الخروج نحو بؤكافر لمقاومة المستعمر الدخيل.

¹³ - نفس المصدر، ص: 38 و 39.

¹⁴ فضيلة الشيخ الفقيه الطالب لحسن بن أحمد بن الحسن بن موحى العزاوي ثم العطاوي ثم البوريكي المزداد بالنيف سنة 1885 الموافق لـ، 1305 وواضح من نسبه أنه ينتمي لقبيلة آيت يعزى المكونة لأحد أخماس إتحادية قبائل آيت عطا.

¹⁵ أتوفر على صورة لهذا المخطوط.

¹⁶ محمد بوكبوط معركة جبل بوكافر حسب إفادات محلية معاصرة " أشغال الأيام الوطنية الثانية بالجبل في تاريخ المغرب الجمعية المغربية للبحث التاريخي فاس 1994 م، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس.

¹⁷ نفس المصدر

¹⁸ نفس المصدر

¹⁹ نفس المصدر.

²⁰ نفس المصدر.

2) عبد المالك البومسهولي

لقد كان لزواوية الشريف البومسهولي نفوذ كبير وإشعاع لا يخفى، ومكانة طيبة بين قبائل دادس ومكون ومغراة مما أتاح لها نوعا من النفوذ والتأثير في قبائلها بإقامة الصلح بينهم وقطع دابر النزاع، وكذا توحيد جهودهم في مناهضة المستعمر الفرنسي- هذا العامل الأخير هو ما دفع بالكلاوي عند دخوله قلعة مكونة إلى القبض عليه ونفيه إلى مراكش وسجنه هناك لمدة عامين كان ذلك سنة 1919م²¹.

وبالتأمل في زوايا هذه الأقطار وطبيعة تأثيرها في القبائل يتضح بجلاء أنها لم تتوان يوما في خدمة الوطن بتجيش الناس ضد الاستعمار وتحريض المومنين على الجهاد للحفاظ على بيضة وأمن هذا الوطن، حيث كللت هذه الجهود بتصدع كيان المستعمر الذي بدأ بعد ذلك بسنوات في الدخول مع المغرب في مفاوضات من أجل الحصول على الاستقلال وعودة سلطان البلاد وهو ما أتى له سنة 1956 م.

(فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور)

وجدد الله هواطل الرحات على شهداء الوطن الابرار.

²¹ معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا 1413 . 1992 ، ص: 1863 .

لائحة المصادر والمراجع:

(1) المصادر المنشورة

- جورج سييلمان أيت عطا الصحراء وتهدة درعة العليا ، ترجمة وتقديم محمد احدى طبع (BJ PRINT) بدعم من جامعة ابن زهر أكادير، الطبعة الثانية 2011 .
- محمد المهدي بن العباس الناصري، نعت الغطريس، الفسييس هيان بن بيان المنتمي إلى السوس، " تحقيق وتقديم خالد نصر- الدين مطبعة الأمنية الرباط ط 1.
- محمد بوكوط معركة جبل بوكافر حسب إفادات محلية معاصرة " أشغال الأيام الوطنية الثانية بالجلب في تاريخ المغرب الجمعية المغربية للبحث التاريخي فاس 1994 م جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس.
- معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ن مطابع سلا 1413 . 1992 .
- محمد كمال، مقاومة قبائل أيت عطا وايت يافلان للاحتلال الفرنسي (1889-1936) أطروحة لنيل الدكتوراه كلية الآداب جامعة ابن زهر . 2019.2020 .

(2) المصادر الغير منشورة

- الرواية الشفوية للحاج محمد أموجان بتاريخ 6 شتنبر 2022 .
- رواية شفوية ل محمد بنهيش التايد.